د/براهيم أحمد [1]

– مقدمة :

ما معنى أن نعيد طرح مسألة الثقافة ،والحوار الثقافي وإمكانات البناء والتشييد من الاختلاف والتعدد ، وتحديدا من داخل كيان فلسفة الثقافة (la philosophiede la culture) كما تبدت مع **فرناند دومون** (**Fernand dumont**)[3] .

ألم تدفعنا الحاجة الى ذلك ؟ألم يدفعنا الواقع المأساوي الذي يشهده العالم الى إعادة تشريح أزمة الثقافة وفق المنظور الدوموني ؟ ألا يمكن اعتبار الرؤية الدومونية رؤية ملهمة لكل الفاعلين في هذا العالم من دون اغفال الاختلاف الزماني والمكاني أي التاريخي والاجتماعي لهذه الرؤية ؟

كيف يمكن لنا أن نحدد اليوم أكثر من أي وقت مضى رؤية تحتضن الكل وتثمن البعد الإنساني فينا ؟إن الغرض من خلال الإقامة بين ثنايا الفكر الدوموني ومحاورة فلسفته ليست لشيء إلاّ لغرض تتبع خطاه الفكرية حول الثقافة ،والانسان ،وإمكانات البناء من المختلف والمتعدد فينا ،من خلال البحث في المعنى كحضور وفاعلية يتبدى كمظاهر ثقافية مميزة لتلك الثقافة من تلك ،فالغاية اذن تقترن بالراهن والمعاش ،لفتح المنغلق وبعث آمال تكون في مستوى تطلعات مجتمعاتنا.

1/–في البدء تشخيص الأزمة:

[2]–أستاذ محاضر بجامعة عبد الحميد بن باديس

يرى دومون أن إمكانية فهم الواقع ومحاولة تشخيص العلل والأمراض الموجودة في المجتمع ومعالجتها ومن ثمة تغييره لا يمكن أن تمر من دون أن يكون المرء "قد تساءل عن الموضع الذي ينطلق منه من أجل أن يفضح الأوهام ويعيده الى الواقعي"[4]، ما يعني أن دومون انطلق وشخص من عالمه المعيش ،فالواقع الكيبيكي ومن ورائه الكندي مجموع انتماءات ،هويات ،وبالتالي ثقافات عديدة مختلفة المشارب ،بمعنى آخر إننا مع دومون أمام مجموع حقائق حفظتها الذاكرة ،هذه **الذاكرة** تحفظ **تجارب إنسانية حية ،ومعاني** لا تزال فاعلة حاضرة على أكثر من صعيد ومستوى ،كلٌ له زاويته ورؤيته الخاصة به اتجاه هذا العالم ،هذا الوضع زاده العقل الأداتي تأزما والذي لم يعمل على معالجة الوضع السائد وفق رؤية نقدية تعمل على احتضان وتثمين هذا التعدد والاختلاف ،أي من خلال ثقافة وقيم جديدة أكبر منفتحة على الكل .

والعقل الأداتي امتداد للثقافة الحديثة التي اهملت البعد الإنساني على الرغم من زعمها العكس. "ثمة –والقول هنا لدومون – في هذا المجال ضرب من **قبلية** الثقافة الحديثة .فالثقافة الحديثة تنزع ،من حيث كونها ثقافة ،إلى ألاّ تتعين بوصفها واقعية .ولقد أوضح الكثيرون غالبا ،وبكل الوسائل ،أن للتقنية في حضارتنا كثافة ،وبالتالي استقلالا ذاتيا أكبر"[5]، فالعقل الاداتي بهذا وفق المنظور الدوموني زاد من الهوّة وخلق أزمة مضاعفة داخل المجتمع الكيبيكي ،أزمة أولى شبيهة بتلك التي شهدتها المجتمعات الغربية والتي كانت ضحية النزعة الوضعية (العلمية) ،ما جعلها تعاني أزمة قيم ،أي أزمة ثقافة كان الانسان ضحيتها الأول ،وأزمة ثانية كونه زاد في توسيع أزمة الاختلاف العرقي والثقافي داخل المجتمع الكيبيكي ومن ورائه الكندي .بمعنى آخر بقي العقل الأداتي وفيا لمبدئه الباحث عن تحقيق أهدافه ولو

على حساب البعد الإنساني في هذا العالم ،ومن دون الانخراط في معالجة الوضع القائم والمعاش.

إننا بهذا مع دومون أمام مشكلين :الأول يتمثل في التعددية التي اكتسبها المجتمع الكندي ،والتي اذا لم ينظر اليها بصورة مختلفة ومفارقة فإنها ستنعكس سلبا على المجتمع ،والثاني يتعلق بهيمنة العقل الأداتي الذي زاد من حالة التوهان داخل هذا المجتمع .وهو الأمر الذي دفع دومن الى أعاد طرح سؤال **الانتماء والهوية والتعدد والاختلاف** من منظور وزاوية مختلفة ،وهوما يعبر عنه صراحة في كتابه الموسوم ب :"مصير الثقافة"[6] (le sort de la culture) حيث ينادي الى ضرورة إيجاد انجع الطرق والسبل والميكانيزمات لمعالجة التعددية/ الكلية في ظل الفردانية التي يشهدها المجتمع الحديث "عمل يحترم ويساوي ،حتى تكتسب مجتمعاتنا التعددية ،وحتى ننشرها بين الأجيال "[7] ما يعني ضرورة إيجاد رؤية تتوافق وتطور المجتمع الحديث ومن زاوية تأخذ بعين الاعتبار **الانتماء** و**الهوية** التي حفظتها لنا الذاكرة الفردية والجماعية المكونة للنسيج الاجتماعي الكيبيكي ،فالأزمة التي شهدها مجتمعه أزمة **انتماء** ،**وهوية** ،**وقيم** ما يعني أنها **أزمة ثقافة** .حيث يسلم **دومون** بأن تجاوز هذا الاختلاف والأزمة التي يشهدها مجتمعه من خلال الثقافات لا يكون الا من خلال الثقافة نفسها من خلال خلق ثقافة جديدة تكون بمثابة الحاضن الأكبر لمختلف الثقافات الأخرى ،"فوحدة الثقافة هي مشروع جدال رهانه الثقافة حقا"[8]، وهذا لن يتأتى الا من خلال روح نقدية مسؤولة تأخذ بعين الاعتبار الوضع السياق التاريخي والاجتماعي الراهني الذي تشهده الكيبيك ."إن الأهمية الحاسمة التي اتخذها –والقول هنا لدومون–،في مجتمعاتنا ، الخطاب القيمي حول وحدة الثقافة ،إنما نشأ إذاً ،في نهاية الأمر ،بفعل الدمار الذي

أصاب الاجماع الاجتماعي والذي يزداد وضوحا .إن مهمة التعبير ،أي مهمة انتاج الوحدة تنبعث الآن مع أعماق الوجود الجماعي"[9]، وكأن دومون بهذا يعيش بيننا يعبر بصدق عن واقع الحال ،عن التشرذم والضياع الذي يعيشه عالمنا اليوم ،عالم ضاع بين تضارب المصالح السياسية والأيديولوجية، العنجهية والهيمنة.

2/–رؤية العالم وعلاقتها بالثقافة :

إن الثقافة ،أي ثقافة كانت هي الذاكرة التي تحفظها الذات عبر محطات التاريخ العديدة والمتعددة ،إنها مجموع المعاني التي لها فعاليتها بين جماعة من البشر ،والملهم الأول لهم في تصورهم للعالم ورؤيته له ،"فالعلاقة بالعالم هي علاقة تصورية في الادراك قبل أن تكون علاقة سلوكية في التفاعل"[10]، وبحكم التعدد والاختلاف الثقافي الذي يشهده المجتمع الكيبيكي فإننا بهذا مع **دومون** أمام مجموع رؤى مختلفة حول العالم ،هذه الرؤى تستمد من مختلف الأشكال الرمزية والتعبيرية للثقافة. "إن الرمز هو أول توزيع للمعنى في العالم لأنه يكشف صلة القربى بين ضروب الدال بالمدلول .وهو بالحركة نفسها ،توزيع للذوات :إنّه يجعل مرساها في أوضاع مشتركة بقدر ما يسمح لها أن تعطي معنى الى وضعها هذا "[11]، ما يعني أن الذات تستمد سلوكها ومختلف أفعالها من مختلف الاشكال التعبيرية الخاصة بالثقافة التي تنتمي اليها ،"فالعالم هو ثقافة ،ترميز تدريجي للتجربة التي يختبرها الناس حول ذواتهم وحول الأشياء .الثقافة بوصفها "طبيعة ثانية " هي فهم العالم ،ذلك الفهم الذي يضع نظاما ثابتا في الأعمال والمؤسسات"[12]، أي ما يتمظهر في سلوك البشر وعلاقاتهم الاجتماعية ،وكل ما يتبدى من عادات وتقاليد والتي تأخذ أبعادا ملموسة سواء كانت فكرية من خلال تثبيتها في اللغة كأحد أهم الرموز التعبيرية للثقافية فعالية ،أو في هياكل سياسية وقانونية .إن

الثقافة بهذا **الملهم** الأول لأي جماعة ما ،ليس فقط باعتبارها **معطى** بل باعتبارها **بناء** يتجدد باستمرار ،"فالفعل هو كشف مجال وكشف أفق .إنه يتجلى في حقل الممكن .ولا بد له أيضا من أن يغربل ويختار :ذلك أن عليه أن يرد المجال إلى وضع مرسوم والافق الى غاية محددة .وليست هذه السيرورة المزدوجة سابقة على الفعل ،بل انها بل انها ما يكتسب الفعل صورة "[13].

لقد وجد دومون بهذا نفسه أمام مجموع مختلف ،كلٌ ينهل من انتمائه ما جعل مجتمعه يعيش **أزمة** ،**أزمة انتماء وهوية** ،أو بالأحرى **أزمة ثقافة** بالمقام الأول .فهل ما يشهده الواقع الكيبيكي هو صراع ايديولوجيات؟

3/–من الثقافة الى الايديولوجيا :

من خلال ما تقدم فإننا مع دومون أمام مجموع رؤى وتصورات مختلفة داخل مجتمع واحد ، وكل طرف من هذه الأطراف عادة ما يسعى الى فرض رؤيته على الآخر المختلف والهيمنة على الحياة الروحية والعملية داخل هذا المجتمع ،على اعتبار أنه المالك الوحيد والأوحد للحقيقة ،وهذا ما يعتبره دومون أيديولوجيا ،فهي بهذا "المجتمع بوصفه مشاحنة .إنها المجتمع بوصفه مشاحنة .إنها المجتمع الذي يسعى إلى أن يحدد ذاته في صراعات وتناقضات"[14]. إننا بهذا مع دومون أمام مجموع ثقافات تعمل على تجسيد رؤاها من خلال الهياكل والمؤسسات التي تتخذها كأدوات ووسائل .

لقد مثل المجتمع اليبيكي بحق نموذجا حول الأيديولوجيا باعتبارها حقلا حاولت فيه مختلف الفاعلون فرض رؤيتهم على الآخر" فالإيديولوجيا هي بصورة رسمية ،فكرة الآخر

(...)إنها حقيقة ترمي إلى أن تؤمن الاجماع الذي لا بد منه للأعمال السياسية ،ولكنها تلبث بعيدة عن الشعور الذي تستقر فيه ،بصورة فرضية ،قناعات وضروب من المحاكمة ومبادئ أكثر رسوخا"[15]، ما يعني أننا أمام المستوى الثاني من الثقافة ،أقصد المستوى الوظائفي الذي يعمل على ترسيخ رؤاه من خلال الهياكل والمؤسسات الذي تمثله ،لكن تبقى هذه الوظائفية ضارة اذا اهملت البعد الإنساني ،وهذا ما يتجلى بوضوح مع العقل الأداتي .هناك قيم جديدة ،ثقافة جديدة ،أيديولوجيا جديدة "مقامة باسم الوظائفية "[13]، وظائفية استغلتها جهات سياسية لتحقيق أهداف معينة من دون التفات الى الانسان .إنها باختصار **ثقافة الهيمنة والسيطرة.**

بمعنى آخر أكثر اتساعا يرى دومون في الأيديولوجيا "**الصور الثقافية** الأكثر وضوحا، فيها تجد ضروب التحيز مبرراتها وتنمو **بالمعارف والرموز** .فالفئات الاجتماعية تعتنقها ، وهي تولّد حركات اجتماعية .إن لها **وسائلها في الانتشار** وأساليب معقدة في البرهنة **ودلالات جاهزة للوقائع** والأحداث التي تطرأ "[17]، فالايديولوجيا بهذا رؤى مستمدة من ثقافات معينة، هذه الثقافة تعتنقها الجموع على اعتبار أنها الحقيقة الواجب الوثوق بها لأنها تعمل من خلال ما تصوره لهم (مجموعة رؤى)، على تحقيق آمال الشعوب ،وهذا من خلال **خلق وترسيخ معاني** تتوافق **وتعبيرات الإرادة،** ولو أنها في واقع الحال تخدم أهدافا سياسية –والنماذج كثيرة لا حصر لها-.

إن دومون بهذا يجعلنا أمام معنى له فاعليته في الجموع يصعب نزع الأقنعة عنه بلغة هيدغر ،يوهم الناس على أنه في خدمة الإنسانية جمعاء لكنّه في الحقيقة يخدم **جماعة/ثقافة**

ما على حساب الأخرى .هذا هو المأزق الذي يشهده العالم ،فالايديولوجيات تقوّت مناعتها ،وأصبح الجهاز المناعي للبشرية عاجزا على كشف تلاعباتها وأطماعها **خاصة بالنسبة للمنتمين اليها** ،وأصبحت **الأيديولوجيا** كما **الإيدز** تتغير تحركاتها ووسائلها بتغير السياقات والظروف .**إذن فما العمل لتجاوز هذا المعطى ؟وأي طريق سيسلك دومون ؟**

4/–النقد كأفق لتجاوز الانسداد الثقافي والاجتماعي :

لا يخرج دومون في معالجته للأزمة الثقافية التي شهدها مجتمعه عن الروح السائدة في العلوم الاجتماعية والإنسانية ،أقصد **الروح العلمية النقدية** التي تتيح وتعطي امكتنية تناول **الظاهرة محل الدراسة (أقصد الاختلاف والتعدد الثقافي)** بوسائل وأدوات منهجية عديدة ومتعددة ،حيث يرى **سارج كانتين" (serge cantin)** أنّ **الروح نقدية لدومون** استقت معالمها من مختلف التيارات الفكرية والفلسفية التي شهدتها الحقبة المعاصرة ، "فهذه الروح الانفتاحية والحوار مع مختلف التيارات الكبرى في الفكر المعاصر ،روح يمكن اعتبارها مسكونيّة[18] (على طريقة المجمع المسكونيّ)"[19]، ووفق رؤية عقلانية يكون فيها العقل الميزان والفيصل (الحكم) لإزالة وكشف التلاعبات الظاهرة والخفية التي كان المجتمع الكندي مسرحا لها ."فليس للعقل الهادئ المتأمل من مهمة غير أن يكشف ويعكس العوامل الملائمة أو غير الملائمة لوظائفية غاية في الاتقان ،وظائفية واقع اجتماعي حريص على شرط وجوده"[20]. إننا بهذا بهذا مع **دومون** أمام **مهمة** شاقة يضطلع بها **العقل** –على الطريقة **الكانطية**–في قراءة **الواقع** انطلاقا من **المعنى** المتشكل عبر التاريخ وفق سياقات ومشارب عديدة ومتعددة ،والذي يتمظهر كسلوك مميّز لهذه الثقافة من تلك .إن **دومون** بهذا يحاول

إعادة اكتشاف الذات وبعثها من جديد نحو أفق جديد يراعي **التعدد والاختلاف** ويحفظ للجنس البشري إمكانية العيش معا ،كل هذا عن طريق محاكمة نقدية يكون العقل فيها المحقق والقاضي في نفس الوقت .إنّه "النداء الموجّه الى العقل كي يعود فيقوم بأشق مهماته جميعا ،عنيت معرفة الذات ،وينشيء معرفة تضمن له دعاويه المحققة ،لكن تخلصه في المقابل من كلّ الادعاءات غير المؤسّسة ،لا بقرارات تعسفية بل بقوانين خالدة وثابتة ،هذه المحكمة هي نقد العقل المحض نفسه"[21].

فنحن بهذا مع دومون أمام نقد مستويين لمعاجة الواقع :كعتبة أولى نقد المستوى الوظيفي (الفعل /البراكسيس) ،وكعتبة ثانية وهي نقد المستوى الرمزي والمعنوي لهذا الوظيفي ،أقصد أن العالم الموضوعي مجموع معاني لها فعاليتها ،لها حضورها ،في الواقع ،هذا الأخير تتطلب دراسته دراسة مختلفة تعنى بمختلف **الأشكال الرمزية** الحاملة لهذا المعنى خاصة **اللغة** .بمعنى آخر لقد سعى دومون الى دراسة ونقد المتعدد الموجود في مختلف الأشكال التعبيرية لكل ثقافة (الرمز) دراسة تؤدي الى المركز ،أي الى خدمة الواقع .هناك واقع معاش وجب دراسته ،هناك نسق منظم له ايقاعه داخل المجتمع يبغي التتبع والدراسة لفتح آفاق جديدة ،فالروح النقدية الدومونية غايتها هنا الكشف عن منابع كل ما هو وظيفي له تأثيره في الواقع ،أي الكشف عن الأذرع الثقافية الفاعلة وهذا من خلال الأشكال الرمزية التعبيرية الخاصة بكل ثقافة ،وهذا التوجه امتداد لتوجه معاصر جديد ساد الفكر الفلسفي الغربي مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ،ألا وهو الكانطية الجديدة والتي راحت تنقل النقد من البعد المعرفي نحو البعد القيمي ،وتتشكل الكانطية الجديدة "من تيارين كبيرين ،تيار مدرسة بادن الذي يتزعمه ريكرت أستاذ هيدغر، ووبندلبود ولاسك ،ويهتم هذا التيار

بشكل عام بمسائل القيم .وهناك تيار مدرسة مربورغ ويتزعمه كوهين وناتورب وكاسيرر .ويهتم هذا التيار عموما بمشكلة نظرية المعرفة ،وفكرة النظام المرتبطة بالمنهج المتعالي ومحاولة ربط المنهج بكل الوقائع الثقافية للعلوم والثقافة على حد السواء"[22]، فمعلوم أن أروبا قد شهدت أزمة ثقافية من خلال هيمنة البراديغم العلمي على كل مناحي الحياة ما استدعى نظرة أخرى تعمل على دراسة وفهم الواقع أمام عجز البراديغم العلمي (النزعة الوضعية) على فهم هذا الواقع ،اننا نقصد **فلسفة الاشكال الرمزية** كما تجلت مع **كاسيرر** من خلال محاولته انشاء ما يسمى ب: **النحو الثقافي** ،بحيث يصبح **العلم** نفسه أحد المظاهر **التعبيرية للثقافة.**

بهذا الشكل نفهم المنحى النقدي الدوموني الهادف الى فتح آفاق جديدة أمام المجتمع الكيبيكي. "فليس الخطاب القيمي مديحا مجانيا لقيم مقبولة بصورة إجماعية، بل هو المختبر الواسع الذي يتم فيه اعداد أشكال الوحدة الاجتماعية والثقافية ومناقشتها. ومن البديهي أن لغة التجميع هذه تتميز عن وحدة الثقافة أو وحدة البراكسيس التي تفترض أنها معاشة. ولم تبد المسافة في يوم من الأيام بهذا القدر من البعد كما بدت في أيامنا هذه بين الثقافة المتلقاة وبين الثقافة النتاج ،بين المعنى الطبيعي وبين الصنع المتجدد"[23].

5/–إعادة بعث الثقافة من خلال الرمز :

إننا بهذا أمام معطى سابق عنه له فعاليته على أرض الواقع ينبغي المراجعة ،فالذات العارفة الكيبيكية ومن ورائها الكندية مطالبة بدور يخدم وينطلق من واقعها وعالمها المعيش ،فهي أمام حتمية إعادة تكوين الذوات من خلال المعنى ،وهذا من خلال نقد مختلف الأشكال

الرمزية وخاصة اللغة، حيث يرى دومون أن "اللغة سمّت الأشياء قبل أن أقول ذلك بدوري"[24].

اننا بهذا مع دومون أما معطى سبقني أما سياق تاريخي واجتماعي وجدت نفسي فيه ما يحتم علي إعادة النظر ودور يخدم هذا الواقع في راهنيته الآنية أولا وتمهيدا لرؤية مستقبل أفضل لاحقا ، فدومون يرى في "اللغة بمثابة عنصر من عناصر الفعل ،الأمر الذي لابد من أن يؤخذ بالمعنى الأدق : إن اللغة هي أداة إذاً"[25]. للغة تأثيرها على المشاعر ،على النفوس ،لها فعاليتها على الواقع ،وعلى العلاقات الاجتماعية ،والمتصرف الدائم فيها هي الذات دائما .انها رؤية مشابهة لتلك التي جاء بها **كارل ماركس** والتي تعمل على نقل الفكر من النظر الى الفعل أي بجعله **براكسيس** له وقعه على المجتمع ،لقد سعى بهذا **ماركس** الى تأسي فلسفة تعمل على "تحويل الأفكار الى مشاريع والصور الى أفعال"[26].

يعتبر دومون "الثقافة برمتها على أنها براكسيس ،ويجب ذلك .إن علم الفعل هو علم الثقافة أيضا (...) وبما أن البراكسيس فعل فهي فكر، ولكنها فكر من حيث كونها أسلوب أو ،إذا شئنا ،من حيث كونها استعادة بنى الفاعلية المادية ونتائجها على العلاقات الاجتماعية المتبادلة"[27].

يضعنا دومون بهذا أمام فاعلية معنى تتمظهر في سلوك الأفراد وعلاقتهم ببعضهم البعض أي في **"النحن"** ،وفي علاقتهم مع الآخر المختلف .إننا أمام خصوصية هذه الثقافة من تلك ،من خلال السلوك ،أو بالأحرى من خلال **الرمز** بإعتبارها **المكون** الأول **للذات،** فالواقع المعاش في نظر **دومون** لا يمكن فهمه وفك طلاسمه الا من خلال "علم

شامل للفعل ،علم انساني طبيعي قدمت لنا الماركسية مخططاته الأولى"[28]. إنه كما يسميه دومون **علم الكلام** (**logologie**) "إنه هو أيضا **علم طبيعي** بما أن وجهة نظر الذات مستبعدة منه .فالذات هي من خلق اللغة بوصفها وسطا وبوصفها أداة على السواء، أو أنها ليست سوى الفاعل العرضي لها"[29]. اننا بهذا مع دومون أمام إعادة بعث **الأنا** من خلال فصلها عن **الذات وإعادة بعثها من خلالها أيضا** ."فالقيمة معزولة عن الآلية ،ولكنها تصبح ،على طريقتها ،نتيجة عملية ،نتيجة فعل .**والدلالة مصنوعة** في نهاية المطاف .وعلى **المعنى** أن يكون **مطروحا لا متلقى** مثلما كان من قبل .وينتقل **البحث عن المعنى** من **الاصغاء** الى **الكشف** الى **ملاحقة** الأهداف(...) بين **الكشف** وبين **النشأة** ،بين الأدوار الموروثة وبين الجغرافيا المجردة للأوضاع ،بين **مزج المعنى** و**العقلانية وبين فصلهما** ،**بين الأنا والفاعل**"[30].

6/–الثقافة بأي معنى؟ :

لقد كرّس دومون حياته لدراسة الثقافة في العديد من كتاباته ،ما جعله يتساءل في الكثير من المواضع عن مكان الانسان في هذا العالم وبالنسبة الى الثقافات العديدة والمتعددة ،خاصة في كتابه الموسوم بعنوان أول كبير: **مكان الإنسان**[31] (**le lieu de l'homme**) ،وعنوان ثانوي :**الثقافة بوصفها مسافة وذاكرة** (**– la culture comme distance et mémoire–**) ،الذي يعتبر الكتاب المرجع والاساسي في كيفية تعامل الانسان مع المختلف والمتعدد الثقافي الموجود في هذا العالم ،لكنها تسعى دائما الى إيجاد ما يلائم وضعيتها من دلالات وقيم ومعايير تتيح للإنسان

تلك الإمكانية من العيش ،لقد حاول دومون بهذا من خلال هذا الكتاب الى إعطاء نظرة فلسفية يراها كفيلة بمعالجة واقعة المتأزم ،آخذة بعين الاعتبار **ما سبق (الذاكرة ،المعنى أو المعطى الأول)** ،"ولهذا نحن نكرر القول باستمرار –والقول هنا لدومون –أن الثقافة هي بالنسبة للإنسان المسافة بين الذات وذاتها ،فهي في نفس الوقت أصل الكلام وموضوعه"[32]. إن دومون بهذا يجعلنا أمام إمكانية التطور والبناء وهذا عن طريق المسافة التي تضعها الذات مع ذاتها أي مع ما تمتلكه من معاني وتصورات حتى تستطيع تطويرها وفق الحاجة ووفق المقتضى .إننا بهذا أمام ثقافتين أولى موجودة أصلا وثانية تبنى وترسخ باستمرار ،فالإنسان هنا دائما ما يسعى لأقلمة الثقافة الأولى مع السياق العام والتحدي والوضعية التي تجد الذات نفسها فيها .يقول دومون :"عندما آخذ الكلمة فإنني لا أتقيّد بجعلها صدى اللغة السابقة التي توفر لخطابي عناصر النطق .آخذ أيضا لحسابي نوعا من المسافة بين معنى أول لعالم مشتت في الأفعال الخاصة بسياقي الجماعي وعالم ثان حيث يسعى مجتمعي التاريخي لإكتساب دلالة منسجمة مع ذاتها كأفق مطلوب .هذه المسافة والقطبان هي ما ينبغي إدراكه من مفهوم الثقافة "[33].

ومنه فالثقافة هي تلك المسافة التي تضعها الذات لنفسها بين الثقافة الأولى الموجودة سلفا بحكم الانتماء والثقافة الثانية التي تتجدد باستمرار وفق السياقات والتحديات والوضعيات ،ما يعني إمكانية التطور والتغيير من دون الانفصال عن ما هو موجود قبلا ،وقد اصطلح على هذه الثقافة ذات البعدين **بالثقافة المضاعفة ،أو الثقافة المزدوجة (le dédoublement de la culture)** ،فكل واحد فينا يجد نفسه أمام ثقافة ما والتي تشكل هويته وانتماءه ،إنّه بهذا أمام **معطى** معين ،لكنه في المقابل نجده دائم **التركيب**

انطلاقا من التحديات والوضعيات والسياق الذي تتواجد فيه الذات . "فالثقافة الأولى – والقول هنا لدومون- هي معطى .يتلقفها البشر بحكم الألفة (التعود) في شكل معاني ،نماذج ،وفي ذخائر شعبية (أمثال شعبية) متفق عليها :إنها مجموع الأفعال ، الأعراف والعادات والتقاليد كشبكة كاملة من قبل أو كل ما يعرف تلقائيا في هذا العالم كما في المنزل "[34].

يرى **جوليان ماسيكوت** (**julien massicotte**) **أن دومون** استند وانطلق من واقع معاش خاصة مفهومه المتعلق **بالثقافة المضاعفة** ،حيث يقول في كتابه الموسوم ب :الثقافة والهيرمينوطيقا .الترجمة في مجموعة فرناند دومون :"أن كل دراسة نظرية علمية مهما كانت ،تستند على مفترضات مستمدة من التجربة المعيشة :على سبيل المثال مفهوم العمل عند كارل ماركس ،مفهوم الاكراه عند دوركايم ....الخ ،وهو نفس حال دومون من دون شك بالنسبة لمفهومه حول المضاعفة"[35]

إننا بهذا مع دومون أمام بناء جديد للذات من هياكل ومؤسسات ووسائل موجودة في الثقافة نفسها يسميها دومون **بالثقافة الصريحة** في مقابل رؤى أخرى استترت واختفت بحكم تلك القوى والتي تتجسد في **الثقافة الخفية** الأكثر انتشارا وشيوعا على اعتبار انها الأولى ،والثقافتين بالنسبة لدومون متداخلتين ومتواجدين في مجتمعنا المعاصر ولا يمكن فصلهما عن بعضهما البعض ."لا يمكن للأشخاص-والقول هنا لدومون –إدراك كل القيم الضمنية في النماذج والمعايير التي تعمل فيهم ،فلا يمكن لوعيهم المفكر أن يساوي الثقافة الأولى .فكأنهم يختارون ويحبذون في هذه الثقافة بعض المعايير والقيم لجعلها مثال الرؤية الصريحة للعالم"[36]. اننا بهذا أمام **ثقافة أولى** هي بمثابة ذخر وانتماء وثقافة ثانية يرتكز بناؤها على هذا المعطى الأول.

بهذا فالثقافة بالنسبة لدومون كما لو أنها مسرحية تجسد في كل مرحلة من مراحل الحياة دورا معينا بما يخدم آفاق المجتمع وتطلعاته .يقول دومون :"يمكن أن نرى في التاريخ بوصفه دراما حيث تسعى الأدوار الاجتماعية لأن تتجسد في تصورات العالم أو أن تجسدها"[37].

7/–من المجتمع التقليدي الى المجتمع الحديث :

من خلال ما تقدم فإننا بهذا مع دومون أمام ثقافتين :ثقافة أولى سابقة تواجدت بالاتفاق في المجتمع في صورته الأولى أي في صورته التقليدية ،وهو ما يصطلح عليه بالمجتمع التقليدي (la société traditionnelle) وهو بالنسبة لدومون " تاريخ حي سابق يشير الى بداية حركة الزمن ،إنه بمثابة نموذج لسلوك بشري "[38] حيث تعتبر الأسطورة الملهم الأول لهذا المجتمع على اعتبارأنها شكل من أشكال التفكير الإنساني أعطى للإنسان مجموع أفكار شكلت بالنسبة اليه معنى وتصورات ورؤى حول العالم وكل ما يحيط به ،وأجابته على مختلف الأسئلة التي كانت مصدر القلق بالنسبة اليه.

أما الثقافة الثانية فهي التي تبنى وتركب باستمرار تبعا للضرورة التاريخية والاجتماعية ،أي تبعا لإفرازات العصر وإمكاناته ،وهي تنتمي بالنسبة لدومون الى المجتمع الحديث (la société moderne) الأكثر تنظيما والذي له هياكل عديدة تعمل على ترسيخ رؤيته ،"فهي في الواقع متعددة الأشكال .فلا يبدو بعضها إلاّ بوصفه قولا لا تمثله جماعة أو حزب أو دعامة ما ،إلا بصورة متوقعة "[39]، فالهياكل الحديثة تعمل على ترسيخ وتجسيد رؤاها المختلفة في المجتمع بما يخدم أهدافها وتطلعاتها الآنية والمستقبلية .إننا بهذا مع دومون

أمام رؤيتين **رؤية صريحة للعالم** لها هياكلها ومؤسساتها **ورؤية ضمنية خفية للعالم** موغلة في التاريخ تلقفتها الأوساط الشعبية عبر مراحل مختلفة منذ اللحظات الأولى للمجتمع.

8/–الثقافة وأفق الحوار والتجديد :

إن الغاية التي يريدها دومون هنا ليس التطابق بالمعنى الإكويني (توما الإكويني) الساعي والباحث عن الحقيقة المتطابقة كلية مع الواقع ،بل بالمعنى الغادامير (جورج هانز غادامير) الساعي "لدراسة سؤال الفهم كتطبيق (adoequatio)"[40]، فالأول أراد الوصول الى الحقيقة بالبحث عن تطابق كلي بين "العقل والأشياء للوصول الى الحقيقة ،لأن الحقيقة كانت تعني بأن يتطابق الذهن مع حالة العالم "[41]، أما الثاني فغايته تقريب الذات نحو العالم لفهمه واستيعابه للوصول الى إمكانية أكبر للانسجام معه ."فتقسيم المقولة (–ad equatio) من شأنه أن يبرز ليس التطابق التام بين الذهن والشيء ولكن العوم في **أفق مشترك** ،أي النقل (ad) الذي يسعى لأن يتناسب (equatio) مع الشيء المراد فهمه .تنتقل الذات نحو العالم لتتناسب معه (نسبة أو علاقة) وتسبح في **أفقه** وهذا هو **الفهم بالمعنى التأويلي** عند غادامير"[42]. ما يعني أن الذات بصدد استنطاق العالم بوصفه علامة لكشف المكنون فيه بما يخدمها داخل سياقها الثقافي والاجتماعي ،وهذا ما يجعل من تلك الرؤية رؤية نسبية لها زاويتها الخاصة بها ،فمهما علا الجهد البشري فهو نسبي يفهم أشياء وتخفى عنه أشياء أخرى .هنالك أمور تكون صالحة وأخرى لا ،ليحدث العكس في وقت لاحق. "ما أود قوله –والقول هنا لدومون–أن عالم "الحس المشترك" له استقبال مضاعف للمصطلح :بوصفه حقيقة ثابتة (comme vérité certaine) ،وبوصفه حقيقة

مجمع عليها (-comme vérité unanime-) .هنالك عالم آخر من التغيير ،من الممكن ،من عدم اليقين "[43].

إن دومون بهذا عمل على إيجاد أفق تكون فيه إمكانية للحوار والتسامح والعيش معا ،لأن تسبح مختلف الذوات وأن تستمع لبعضها البعض مغلبة مصلحة الانسان ومثمنة له على اعتبار أنه مكسب الثقافات جميعها .

-الخاتمة :

إن الغاية من دراسة وتوضيح الرؤى النقدية والتجارب التي عاشها الآخرون ،هو محاولة لتقريبها من وسطنا الفكري والمعرفي ،وأخذها كتنوير ودعامة تمكننا من دراسة واقعنا بأنجع الوسائل المتاحة لانتشاله من التخلف والتبعية التي يعاني منها على كل المستويات ،فدومون كمثال نقدي درس واقعة بكل الوسائل العلمية والمنهجية التي يمكن أن تساعده في تحقيق مبتغاه معرفيا وعمليا ،أي بما ينعكس على الواقع الكيبكي بالإيجاب ،وهذا ما نحتاج اليه لتجاوز النظرة المنكفئة على ذاتها والرافضة بحجة أو بأخرى لكل تنوير انساني يمكنه الاسهام في تطوير الواقع بما ينعكس بشكل ملموس على الفرد الجزائري ومن ورائه العربي الإسلامي .

الهوامش:

3- فيلسوف الكيبيك كما يلقب ،ولد في 24 جوان 1927 بمونتمورانسي بالكيبيك بكندا ،له كتابات عديدة في علم الاجتماع وفي اللاهوت والشعر ولكن أهمها كان في الثقافة ، أستاذ سابق وباحث بجامعة لافال بكندا ،توفي في 01ماي سنة 1997م ،تاركا وراءه دراسات مهمة حول الإنسان والثقافة.

4- fernand dumont ,les Idéologies ,dans œuvres complètes de fernand dumont ,tome 2 ,philosophie et science de la culture 1,PUL ,Québec , 2008,p607 .

5-ibid ,p609.

6- fernand dumont ,le le sort de laculture ,dans œuvres complètes de fernand dumont ,tome 2 ,philosophie et science de la culture 1,PUL , Québec ,2008.p337.

7-Ibid ,p 428 .

8-fernand dumont ,les Idéologies ,dans œuvres complètes de fernand dumont ,tome 2 ,philosophie et science de la culture 1,PUL ,Québec , 2008.p

9-Ibid ,p653.

10- محمد شوقي الزين ،التّقاف في الأزمنة العجاف ،فلسفة الثقافة في الغرب وعند العرب ،منشورات ضفاف ، منشورات الاختلاف ،دار الأمان ،المغرب ،الجزائر ،لبنان ،ط1 ،2014 ،ص431

11- fernand dumont ,les Idéologies ,dans œuvres complètes de fernand dumont ,tome 1,op.cit.P 670

12- محمد شوقي الزين ،التّقاف في الأزمنة العجاف ،فلسفة الثقافة في الغرب وعند العرب ،مرجع سابق، ص438.

13- fernand dumont ,les Idéologies ,dans œuvres complètes de fernand dumont ,tome 1,op.cit.P680

14-fernand dumont ,les Idéologies ,dans œuvres complètes de fernand dumont ,tome 1,op.cit.P601

15-Ibid ,p600.

16-Ibid ,p610.

17-Ibid ,p 600.

18- معناه اجتماع رعاة ومعلمي الكنيسة من جميع جهات المسكونة (العالم) لمناقشة أمر يخص الإيمان المسيحي بهدف حفظ النظام وسلامة العقيدة بين المسيحيين في شتى أنحاء العالم ذلك أن مجامع كنسية عدة إلتأمت في القرون الثلاثة الأولى لأهداف خاصة وفي ظروف طارئة لبحث أمور معينة تهمّ الجميع. غير أن ما يميز مجمع "نيقية" (اسم المدينة التي عُقد فيها المجمع المسكوني الاول) عمّا قبله هو أن المجامع الأولى "كانت أحداثا اكثر منها مؤسِسة"، كما يقول الاب جورج فلورفسكي .وكان مجمع نيقية، بالتالي، نموذجا للمجامع اللاحقة، وذلك لأن إهتداء الإمبراطورية الرومانية جعل الظروف تتغير عما قبل، فاستلزم وضع الكنيسة الجديد عملا مسكونيا هو بالحقيقة موجود وأصيل في الكنيسة ولكنه بان بشكل مرئي اكثر ،لكن **سارج كونتي** استعمله هنا اصطلاحا للدلالة على الروح النقدية المنفتحة على كل ما انتجته علوم الانسان من أدوات وعدة منهجية استعملها دومون لإنقاذ مجتمعه ودفعه نحو آفاق جديدة تحفظ كيانه وتؤمن مستقبله .

19-serge cantin ,une herméneutique critique de la culture ,dans l'horizon de la culture ,hommage à fernand dumont ,sous la direction de simon langlois et yves martin ,presse de l'université Laval ,Québec , 1998 ,p48.

20-Ibid ,p612.

21-كانط ايمانويل ،نقد العقل المحض ،ترجمة :موسى وهبة ،مركز الانماء القومي ،بيروت ،لبنان ،د ط ،د س ، ص 26.

22- الزواوي بغورة ،الفلسفة واللغة ،نقد النعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة ،دار الطليعة ،بيروت ،لبنان ، ط1، 2005 ،ص62.

23- fernand dumont ,les Idéologies ,dans œuvres complètes de fernand dumont ,tome 1,op.cit.P 654

24- fernand dumont ,le lieu de l'homme ,la culture comme distance et mémoire ,dans œuvres complètes de fernand dumont ,tome 1 ,op.cit,p10.

25-fernand dumont ,les Idéologies ,dans œuvres complètes de fernand dumont ,tome 1,op.cit.p608

26- محمد شوقي الزين ،التّقاف في الأزمنة العجاف ،فلسفة الثقافة في الغرب وعند العرب ،مرجع سابق، ص463.

27- fernand dumont ,les Idéologies ,dans œuvres complètes de fernand dumont ,tome 1,op.cit.p620.

28-Ibid ,p621.

29-Ibid ,p624

30-Ibid ,p 646-648.

31-fernand dumont ,le lieu de l'homme ,la culture comme distance et mémoire ,dans œuvres complètes de fernand dumont ,tome 1 , philosophie et science de la culture 1,PUL ,Québec ,2008.

32-Ibid ,p06.

33-Ibid ,p25

34-IBID ,p32

35-Julien Massicotte ,culture et herméneutique .L'interprétation dans œuvre de fernand dumont ,édition nota bene ,Québec ,2006, p15.

36-fernand dumont ,les Idéologies ,dans œuvres complètes de fernand dumont ,tome 1,op.cit.p81

37-Ibid ,p82

38-fernand dumont ,le lieu de l'homme ,la culture comme distance et mémoire ,dans œuvres complètes de fernand dumont ,tome 1,op.cit , p42

39-fernand dumont , les Idéologies ,dans œuvres complètes de fernand dumont ,tome 1,op.cit P657

40- محمد شوقي الزين ،التّقاف في الأزمنة العجاف ،فلسفة الثقافة في الغرب وعند العرب ،مرجع سابق، ص478.

41-المرجع نفسه ،الصفحة نفسها.

42- المرجع نفسه ،الصفحة نفسها

43-fernand dumont ,le lieu de l'homme ,la culture comme distance et mémoire ,dans œuvres complètes de fernand dumont ,tome 1 ,op.cit , p25.